الأغراض التي يجب أن نتوخاها في أغانينا

للأستاذ محمد عبد الجواد
المدرس بمعهد التربية للمعلمات

في هذه الأيام ، وفي هذا العصر ، عصر النهضة والتجديد ، هبت عاصفة شديدة من النقمة على أغانينا ، صرفت أو كادت تصرف كثير من الناس عن سماعها ، ودعت بعضهم إلى استحسان وسماع الأغاني الافرنجية وموسيقاها ، وقد حمل هذا بعض الكتاب والأدباء والمفكرين والمتفننين ، على خوض معركة جدلية ، وقف فيها المهاجمون موقف النقد والتجريح ، فعابوا الأغاني في لفظها وموضوعها ، ولحنها وإيقاعها ، كما تذرع المدافعون عنها بأعذار لا تمحو مثالبها ، وتمسكوا بمغالطات لا تغني فتيلا عن العمل على إصلاحها .

وقد هيأت لي مجلة الشؤون الاجتماعية فرصة الكتابة في " الأغراض التي يجب أن نتوخاها في أغانينا " .

كان أثر الأغاني في سالف الزمن ، محصورا في دائرة ضيقة ، حين كان الشخص يغني إما لنفسه ، أو لعدد من السامعين محدود ، في مجلس خاص أو حفل عام ، وكان في استطاعة السامع أو المصلح أن يتغاضى عما فيه من عيوب ، إلا أن الأذاعة اللاسلكية بعد الحاكي جعلت للأغاني صيغة عامة شاملة ، لا تعفي صغيرا ولا كبيرا ذكرا كان أو أنثى ، عالما أو جاهلا — من أن يعاني ما فيها من لواذع وآثام ، فهي مفروضة عليه أينما حل اذا حبسها عن منزله أدركته في الشارع والمقهى ، وطاردته في الملعب والمنتهى وتبعته في متنزهه ، وغشيته في كل مكان .

أما ومصر الفتية تبتغي المجد وتترعم النهضة العربية ، وأغانيها تدعي حتى من الممالك الافرنجية ، فلا عجب أن تنهض بها الهيئات الاجتماعية ، وتوليها ما تستحق من عناية محمودة وجهد مشكور ، لتتبوأ مكانها بين أغاني الأمم الراقية ، التي سمت أغراضها وحمدت آثارها .

وقد كان الحكماء والفلاسفة قد وقفوا بالأغاني قديما عند لذة الروح الوجدانية ، وبسط النفس الإنسانية ، فواجبنا أن نذهب بها الى أبعد من ذلك ، ونحول مقاصدها إلى أهداف كثيرة .

(١) فأول ما نتوخاه في أغانينا ، وهو قوامها الروحي ، أن نجعلها أداة للترفيه والتسلية ، والتسرية والارتياح ، فتكون باعث للسرور والنشاط ، موصلة لصفاء النفوس ومحو مآثر على القلوب ، داعية لبث روح الفكاهة في نفوس السامعين .

فإنه مني جانب لا أضيعه ولله مني وفكاهة جانب

وفى الاستطاعة وجود التسلية والفكاهة فى الأغانى مع البعد عن المجون والخلاعة .

وطبيعة النفس البشرية النزوع إلى الغناء ، فى أوقات التعب والعناء . فيجد العامل فيها خير معين على عمله ، وسلوى وراحة منه بعد فراغه ، كما يجد المفكر من سماعها موقظا لرأيه ، والعاجز وسيلة لاستنهاضه ولأخذ بيده . ألا ترى ما يفعل الحداء بالإبل ؟ إنه يجدد نشاطها ، فتستخف أثقالها ، وتمد أعناقها ، وترهف آذانها ، وتسرع فى سيرها !

وليس الإنسان فى ذلك بأقل حساسية من هذا الحيوان .

ومن الناحية السلبية ، يجب أن نبعد منها عوامل الكآبة والحزن ، وآثار اللوعة والشقاء ، فلا بكاء إلا لتوبة . ولا أسف إلا على مافرط من معصية .

بربك قل لى ماذا تترك من أثر سيئ فى نفس السامع هذه الأغنية ؟ :

يالوعتى ياشقاى ياضنا حانى ضاع الأمل من هواى وانشغل بالى

(٢) الأغانى دروس محببة إلى كل نفس ، ميسورة لكل فرد ، فوق أنها جزء من الأدب الشعبى . لذلك يلزم أن يكون من أغراضها ترقية اللغة وتقويمها ، فترتفع عن العامية الدارجة إلى درجة من العربية الصحيحة ، بحيث لا تنبو عن فهم السامعين ، ولا تعلو على مداركهم وفى مكنة اللغة الفصحى أن تنزل إلى أقصر الأفهام لتؤدى من المعانى ما يدركه العامة .

هذه أغنية لا يستعصى فهمها على طبقات الشعب الدنيا ، وألفاظها عربية صحيحة :

قد بدا الفجر الجميل يملأ الدنيا ابتساما
أين يا بدر الخليل كى أحييه سلاما

وكذلك أغنية أسبوع المولود :

صانك الله وزانك يا وليد الأمل
ورعى الله زمانك فى حياة العمل

ولما كان الشعب مولعا بترديد ما يسمع ، يلاحظ أن تكون مفرداتها مختارة عذبة ، وعباراتها راقية مؤدبة ، وأسلوبها شائقا ممتازا ، وأن تستر ألفاظها مفصوح معانيها .

أين قول بعضهم : " تعالى بين أحضانى " من قول شوقى عفا الله عنه :

لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدى فطوالك

فإن رقة اللفظ واختيار الكلم ، وهذا الرداء الأدبى للتعبير ، كاد يبعدها عن الغزل المكشوف ويخرجها من حيز الأغانى المبتذلة .

أما مثل الأغنية :

يا كابتن أحب نجـــومك　　يا كابتن أموت فى هدومك
كلامك حامى يا كابتن　　يهز الألب طـــوالى
وشـكلك ميرى يا كابتن　　وكتفـك كله بيـــلالى

فألفاظها أخف من معناها .

وقد أعجبتنا قصيده غنائية قوية ألفها الدكتور زكى مبارك ولحنها وأنشـدها الفنان الأستاذ عبد العزيز محمود جاء فيها :

ياملبك الحسن عزت دولتك　　ورعت آلهـــة الحب صباك
شرعة الإســـعاد فينا شرعتك　　وهدى الاشفاق والعطف هواك

(٣) وأهم أغراض المغانى ، ما يتصل بالمعانى . فيجب أن تكون معانيها مستقيمة عفة ، لاغبار عليها ، ولا شية فيها . تتناول موضوعاتها كل مايرمى إلى تربية الشعب وتثقيفه وتهذيب العامة وتأديبهم . فتحض على التدين والفضـيلة ، وتطرى مكارم الخلق ، وتمجد حميد الصفات ، وتشيد بذكر الخدمات العامة والاشتراك فيها ، وتبث فى نفوس الشباب روح التضحية والحماس ، وتبعث فيهم الشهامة والمروءة ، تربى الذوق والأدب ، وتصور معانى الجمال ، جمال الطبيعة و جمال الفن .

(١) أين الأغانى الخلقية ، والأناشيد الدينية ؟ لم لا تردد فى الصباح والمساء ، وعند كل مناسبة ، للصوم والزكاة والحج والجهاد ، الجهاد فى سبيل الله والوطن ؟

يا أمة الاسلام　　حى على الصيام
يا شيعة المختـار　　يا عصبة السلام
الصـوم للابرار　　وافى وللـــكرام

هذه أغنية للصوم ذكرتها على سبيل التمثيل .

أين أغانى الاسعاف والمواساة ، والهلال الأحمر ؟ لم لا تتغنى بفضل إغاثة الملهوفين ، و إعانة المنكوبين ، ولم لاتسهم الأغانى فى تخفيف و يلات الانسانية ، وتلطيف بؤس البؤساء؟

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال؟　　لا ! بل فتاة بالعراء حيـالى

أين نشيد الاتحاد؟ أين أغانى الطوائف والجماعات؟ أين أناشيد الشباب؟ أين أناشيد البطولة ؟ وذكرى الأبطال والمجاهدين ، والعلماء العاملين ، والأساتذة المخلصين :

قم للمعـلم وفـه التبجيـلا　　كاد المعلم أن يكون رسولا

ولبئست الأغنية ما تقول :

خوجة البنات علمهم شغل الآلات ونغمهم

فقد ردؤت لفظا ، وقبحت معنى ، وساءت أدبا .

أين أغانى التاريخ القديم والحديث ؟ والوقائع والمعارك ، والغزو والفتوحات ؟ هل لنا من يذكرنا فى أغانينا بالآباء والأجداد لنحذو حذوهم ونعمل عملهم ؟ :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

(ب) مشاهد الطبيعة فى مصر بديعة جذابة ، بهيجة خلابة ، تدعونا لملاحظتها والتمتع بها . وهى وفيرة منثورة ، أمامنا ووراءنا ، فوقنا وتحت أرجلنا ، حولنا وفى متناول أيدينا . وإذا فات الأمهات أن تكحل أعين أطفالها بمرآها فى صغرهم فليشنف المغنون آذانهم بصوتها وتصويرها فى كبرهم ، وليوجهوا اليها الأنظار ، فهى أخصب مرعى لتربية الأحاسيس والعواطف ، وأغزر مادة لتصوير معانى الجمال .

لم لانسمع فى أغانينا ما يصف شروق الشمس وغروبها ، حر الصيف ولطف المصايف المصرية ، قر الشتاء ودفء المشاتى ، نسمات الربيع وبسماته ، وأزهاره وورود ؟

أين أغانى الشمس الساطعة ، والكواكب المتلألئة ، ونمو الهلال حتى يصير بدرا كاملا ؟

ساعة فى الأصيل على ضفاف النيل ، والطيور تغرد ، حنة إلى أوكارها وفيها فراخها ، صوت النواعير على حوافى الغدير ، وصوت السوانى على الجداول والترع ، الريف ومزاياه ، الحقول وما فيها من خضرة سندسية وسنابل ذهبية ؛ كل هذه المناظر وكثير غيرها جديرة بالتسجيل فى أغانينا .

(ج) يجب أن تضرب الأغانى فى الحقيقة بسهم ، وتأخذ منها بنصيب ، فتصور حياة الأمة الاجتماعية والاقتصادية ، وتمثل نشاط الشعب فى أعماله الزراعية والصناعية ، تشخص العلل وتصف لها الدواء ، تنذر بعواقب الإسراف والتفريط ، وتبشر بجودة الغلات ووفرة المنتوج :

نورت يا قطن النيل يا حلاوة عليك يا جميل

اجمعوا يا بنات النيل يلله ده مافيش مثيل قطن ماشالله

لوزته جميلة حاسبوا عليها حلوة أصيلة والخير فيها

ده حرير يا بنات قطننا والله

نريد كثيرا من هذه الأغنية بعد إصلاحها . وكذلك الأغنية :

يالى زرعتوا البرتقال يلالا اجمعوه آن الأوان يلالا يلالا

وما أجمل هذه الأنشودة المدرسية لسنابل القمح :

سنابل البشر والتهانى ومبعث الخير والرجاء
نقد جئنا بك الأمانى أمانى العـــز والرخاء

أين أنت أيها الحداد ؟ من لى بمن يتغنى بصوت مطارقك ، والعرق يسيل من نواحى جسمك ، واللهب يتوهج أمامك ، والحديد المحمر طوع يديك ، والشرر يتناثر حواليك ، فيقدرك السامعون ويفهموا معنى المثل ، إن لم تحرق جارك بشررك ، آذيته بدخانك ؟

أين نداء الباعة بأصواتهم الرخيمة ، وغناء العمال المشجى فى الشوارع والطرق ، وفى الميادين والعمائر ؟ وأخيرا : فلتكن الأغانى لسان صدق فى الدعاوة للتاجر الصادق ، والصانع الحاذق ، ولتكن إعلانا للبضاعة الوطنية ، والمشروعات النافعة ، ولتكن لسان حال الأمة فى الرضا والسخط .

(د) أما أناشيد المهد وأغانى الترقيص ، فما أحراها بالعناية والنظر فيها ، فهى أول درس يتلقاه الطفل عن أمه ، وهو وإن لم يفهم معناها ، فلا ريبة فى أن نغمها يترك أثرا فى نفسه :

لا تعشق الآذان إلا نغمة كانت عليها فى المهود تدار

هـذا إلى أنهـا تدل على نفسية الأم ، وهى صورة مصغرة لما عليـه أمتها من تقدم وتأخر .

تقول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ولدها عبد الله بن عباس :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفر

تحس فى هذه الأغنية طبيعة المرأة فى الدعاء على نفسها وعلى ابنها ، إن لم يكن سيد الناس أجمعين ، يسودهم بحسبه وبذل ماله الكثير .

ولقد كنت أسمع تلميذات المدارس يتغنين بأنشودة انجليزية نصها :

Spin, Dame, Spin
Your bread you must win
Twist your thread and break it not

وترجمتها : "غزلا غزلا يا سيدة ، كسب الوقت عليك وجب ، لقى خيطك لا تقطعيه" .

فعجبت من أن أول ما تذكر الأم الإنجليزية لطفلها كسب لقمة العيش. وقد سررت لما سمعت أغنية مصرية من إحدى العجائز ، وكأنها صنو الأغنية الانجليزية وهذه صورتها :

يا محلة حلى حلى يا محلة عالنبى صلى
يامحلة واغزلى الكتان يا محلة جوزك عريان

والمحلة خشبة طولها ذراع ، يحل عليها الغزل بعد غزله ، لعده عليها ، لأن الغزل كان يباع بالذراع أو لألف . وقد كان الغزل من عمل العجائز فى قرى مصر ، قبل القرن العشرين ، يوم كانت الأنوال اليدوية منتشرة هناك .

ولله در إحدى أمهات مديرية البحيرة ، حين ترقص ولدها مستنهضة إياه :

يا ولـــد يا ولـــد حس طبلك فى البـلد
و دى البحيرة دربكت والغز آمت عالعرب

وتلك طفلة من تلميذات المدارس تغنى لطفلها :

إن الفراش الناعما فيه تنام دائما
نم يا حبيبى سالما نم آمنا نم آمنا

ولو كان للتربية الجندية أثر فى نفوسنا لقالت له :

إن الفراش فى الخيم فى ظله ترقى الأمم . أو : إن الفراش فى العرا فى ظله ساد الورى

وليس فينا من لم يسمع الأغنية :

يللا تنعس يللا تنـام وأجيب لك جوزين حمام

لعمرى ، ماذا يفعل الطفل بزوجى الحمام ؟ بئست الأحلاق ما تضمنته ، . فالشره عند الوفاء ، وخلف الوعد محتم .

أما الأغنية :

لما قالوا ده غلام قلت يا ليـــلة ظـلام
لما قالوا دى بنية قلت يا ليـــلة هنيـة

فالعجب من أن الأمم تعتز بأبنائها ، وأمهاتنا لا ينشئن الفتية ، خوفا من الجندية . تلك صور متباينة لنشأة الطفل على يدى أمه . فلتختر منها المثل الصالح .

(٥) ولكن أين أغانى الحب ؟ أغانى الهجر والبعد ، والوصـل والقرب ، والعذل واللوم ، والشكوى والأنين .

لقد عبث العرف بلفظ "الحب" فخرج به عن معناه الشريف ، الى معنى ضيق مادى دنىء ، يجعله هو والعشق المحرم على حد سـواء ، وقد ألبسه التفرنج والمدنية الكاذبة ثوبا زائفا من مقدمات الزواج يخفيه عن أعين الدين .

صرفوا معناه عما بين الأب وابنه ، وحب الوالدة لولدها ، وحب الأخ لأخته والزوج لزوجه ، والصديق لصديقه ، والزميل لزميله ، وحب الناس بعضهم بعضا . أين المحبة الدينية ؟ وحب المرء لوطنه ومواطنيه ، وحب الخير لذاته ، وحب أداء الوجب وحب الإنسان لأخيه الإنسان وحب السلام بين جميع الأرض ؟

أما حب الصوفية للذات العلية ، فليس فى العامة من يدرك حقيقته ، و إذا نحن أنشدناهم :

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريش الى ملكوت رب العالمينا

فقد تطربهم الألفاظ ، ولا تصل الى قلوبهم المعانى ، وهل فيهم من يدرك الموقف فى :

اذا ما بدت ليلى فكل أعين وإن هى ناجتنى فكل مسامع

هذا بعض ما نبتغيه من الأغانى فى معانيها وموضوعها .

(٤) أما لحنها وايقاعها ، فهو حدها القاطع ، ولسانها الناطق ، به تفصح الأغانى عما لا تؤديه عبارتها من المعانى .

رفقا أيها الملحنون والمغنون ! مالكم لا تتركون الشعب بجهله وفقره ومرضه فتمطرونه وابلا من النغم الحزين الباكى ، والدنيا مملوءة بالسرور والسعادة .

إن نغمات الخنوع والضراعة ، والتكسر والتميع ، لم تعد ملائمة لروح التربية ، فى الجيل الناشىء ، وكل امرئ حر يربأ بأبنائه و بناته ومائر أفراد أسرته ، عن سماع مثل هذه الأنغام والألحان تقولون إن الشعب يحب هذا اللون من الغناء ، واستعداده هو الذى يوجهه التوجيه المناسب . حجة داحضة ، وعذر أقبح من الذنب !

الأمة الآن ناهضة ، وحق لها أن تكون مرحة ، والمرح يدعو إلى النشاط ، والنشاط طريق الصحة ، والصحة أول خطوة نحو العلم ، فالعقل الحكيم فى الجسم السليم .

أين الأغانى الباسمة ؟ أين الأغانى الضاحكة ؟ . . أين النغم الذى يرقق العواطف والوجدان ؟ أين النغم الذى يهيب بالشبان لنجدة الأوطان ؟ والشباب عدة الأمة عند الشدة ، وسيفها المسلول للذود عن حياض الوطن !

أيها المغنى !

أنت فى مجلس غنائك أبلغ من خطيب ، وأفصح من واعظ ، فاتق الله فى صناعتك وأعلم أن الأغانى كما كانت سما ناقعا ، فقد تكون ترياقا شافيا ، فلتتخذ منها طبا للنفوس المريضة ودواء للأرواح الشاردة !

غذوا أيها المغنون شرة الشباب بالمثل العليا ، وربوا فيهم نخوة الرجولة . يؤتكم الله أجرا حسنا .

تلك نظرة عجلى فيما يجب أن نتوجه فى أغانينا .

(٥) ويجدر بنا، قبل نهاية هذا المقال، أن نعترف بأن بعض الأغانى الحديثة، ترفعت قليلا عن السخف فى التفكير، وابتعدت عن البذاءة فى التعبير، ومالت عن اللحن المخنث ولكنها مع قلتها وضآلتها كالبرق الخاطف، تظهر بغتة ثم تختفى، كأنها تتوارى خجلا من تلك الأغانى المبتذلة الذائعة كالرجل الصالح يتقى مجامع الآثمين !

وإنا لنحمد للهيئات المسئولة ما فرضت على الأغانى من رقابة، ولعل يدها تمتد إلى الإيقاع والنغم، وهو العيب الذى شكا منه بعض دعاة الإصلاح.

كذلك نلحظ أن مختارات الاذاعة سائرة فى طريق التحسن، ولو أنها لما تحرر من كل المحظورات، ونرجو أن تخطو بها خطوة جريئة على ضوء هذا التفكير الجديد.

وفى المدارس نهضة مشكورة، تسير بالأغانى سيرا حسنا وتتجه اتجاها تطيب له نفس الإصلاح الاجتماعى. فأطفالها وتلاميذها أخذوا يتغنون بأناشـــيد وأغان صحيحة العبارة ومعانيها بعيدة كل البعد عن الأغانى الممقوتة :

نغم الطبيعـــة فى أغانيهم وما تملى الرياض وتنشئ الأزهار

فإذا عنيت وزارة المعارف بإنتاج كثير منهـا، وتعاونت مع مجلة الشؤون الاجتماعية على طبعها ونشرها، وتيسير تداولها، وكثرة إذاعتها، آتت ثمرتها وبلغت رسالتها.

ولكن هذا كله، لا يغنى عن المبادرة بعلاج أغانى العامة، والمسارعة إلى إصلاح الأغانى الشعبية وكيف السبيل إلى ذلك ؟

لسنا مع من يرى سن تشريع للأغانى، لأن هذا معناه تحكيم الحكومة فى عواطف الأمة وشعورها. بل يجب أن نعتمد فى ذلك على إرادة المستمعين، وذوق الملحنين، واختيار المغنين، مع إجازة الأدباء والشعراء من المؤلفين المجيدين الموهوبين.

فاذا صحت عزيمة المستمعين وانصرفوا بحق عن سماع تلك الأغانى الخليعة الماجنة، وثاروا عليها وصمموا على ألا ينصتوا إلا للأغانى الجيدة، كان عملهم هذا أول خطوة نحو الإصلاح المنشود. ولتعهد الوزارة إلى جماعة من الأدباء والملحنين والمغنين، باستعراض جميع الأغانى الموجودة تعدم الفاسد منه، وتواريه التراب. أما ما كان صالحا منها بعض الصلاحية، فإنها ترقع خرقه، وترتق فتقه، أو تعيد صوغه وسبكه. على أن تخرج مع ذلك جملة طيبة من القطع الجيدة التأليف والتلحين، فى مختلف الموضوعات والمناسبات، وشتى النواحى والأغراض. ثم تلتقى الوزارة بعض المغنين الممتازين، فيذيع كل منهم ماينا سبه من تلك الأغانى المختارة أو الموضوعة، فى فترات قريبة منتظمة، وساعات معينة محدودة.

وبهذا تصير الأغانى دروسا نافعة مفيدة، تبلغ بالأمة إن شاء الله أرقى درجات الكمال.

محمد عبد الجواد

مدرس بمعهد التربية للمعلمات